

دلالة حذف المسند إليه في بناء الكلام

د. سليمان لحسن

جامعة بشار

الملخص:

العربية ثنائية المعنى، فكل جملتها مكونة من مسند ومسند إليه، بهما تحدد دلالة الجملة، وبمجموع الجمل تحدد دلالة النص أي الخطاب، وهاتان الدعامتان المكونتان لمعاني الجمل تتعرضان للحذف لبناء معانٍ آخر غير التي كانت في الثبوت.

فحذف أحد ركني الجملة يعطي دلالة جديدة بناء على الحذف، فالحذف إذن أعطى دلالة لم تكن موجودة في الثبوت، وكأنما هي تعبير آخر جديد على الرغم من كون الحذف ينطلق معناه بناء على ما هو موجود في الثبوت، يبدأ معنى الحذف حيث تنتهي دلالة الثبوت.

يأخذ الحذف الثبوت قاعدة لبناء معانٍ جديدة، ولكون العربية من خواصها الاختصار والاقتصاد فهي أميل لتوظيف الحذف إذن لبلوغ الإبانة والبلاغة، فمتى بلغت المعنى فقد بلغت وفصح وأبنت أي كنت بليغا وفصيحا وذا بيان في التعبير. وقد وظف القرآن هذا الأسلوب لإيصال المعاني المراد بلوغها بأقرب سبيل، كما وظفها الحديث الشريف والشعر والنثر.

الكلمات المفتاحية: اللغة، مسند، مسند إليه، الخطاب، الدلالة، الجملة، الكلمة، التركيب، الثبوت، حذف المسند، حذف المسند إليه، حذف الدلالة، تغيير المعنى، وجوب، جواز، البيان، البلاغة، الفصاحة، بؤرة، قراءة، تأويل، مدلول، فائدة، معتمد الفائدة، محل الفائدة.

Abstract:

In Arabic language (tongue), the structure of the sentence Consists of a theme and a predicate. These two Elements give a Meaning to the sentence just like all the sentences builds the semantic aspects of the text to be known about the speech in a general way. Nevertheless, the appearance of a semantic sentence can undergo significant variations selon the abolition (deletion) of one of the two syntagms constitute the award.

Of the abolition of one of the two constituents of the sentence ensues a new meaning of the context. For that purpose, we can say that the operation of syntactic abolition of one of the elements of the sentence is creative of new semantic interpretations (performances) just like if it is about a new statement. Given taht the conciseness and the reduction of the term.

العربية ثنائية المعنى ثلاثية المبني، أي أنّها مؤلفة من مسند ومسند إليه من حيث المعنى، ومن جهة التركيب مكونة من ثلاثة أحرف: حرف بداية، وثانٍ حشو، وثالث حامل لعلامات الإعراب أو البناء، وهي التي اصطلح على تعريفها صرفياً بفاء أو عين أو لام الكلمة. فالجمله تنشأ من معتمد الفائدة ومحلها، فبتركيبها تحصل الفائدة، وتتألف الجمل، سواء أكانت صغرى أو كبرى.

المسند إليه من أكثر المحذوفات وقوعاً في النصوص الأدبية والنثرية، سواء أكان فاعلاً أو مبتدأً، وحذفه واردٌ في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر والنثر، وأغلب تلك المحذوفات، لها غاية، وتبني معاني لا تكون، بأقصر أسلوب، وأوضح بيان إلا بالحذف، وتتمّ قراءتها وبيان مدلولها، اعتماداً على العلوم اللغوية، بؤرة المقال المراد تقديمه، وما تقذفه هذه من معاني، يتمّ تحديدها بواسطة الحذف، والتأمل، وتحكيم الذوق، والسياق الذي وردت فيه، ومنها ما يُفهمُ بواسطة الخطاب، أو حال قائل النص، والظروف المحيطة به، كلّ هذه العوامل تتدخل في تحديد المدلول، وفي تعريف المحذوف.

والحذف على ضربين: إما حذف المبتدأ؛ لبناء معاني منها:

قال صاحب المفصل: (ويجوز حذف أحدهما فمن حذف المبتدأ... قال الشارح: اعلم أنّ المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة والخبر محلّ الفائدة، فلا بدّ منهما إلا أنّه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تُغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالاتها عليه، لأنّ الألفاظ إنّما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون لفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مراداً فكراً وتقديراً، وقد جاء ذلك مجيئاً صالحاً فحذفوا المبتدأ مرّةً والخبر أخرى)¹

و من هذا الحذف الوارد في القرآن، لبناء معاني، خصّ الحذف لبنائها، الذي جاء فيه فهم المعنى دون ذكر معتمد الفائدة، لربط المعنى السابق باللاحق وتقدير المحذوف بين يستشف من خطاب، ويدلّ عليه سابقه، أو ما اكتنفه، وفي هذا المعنى جاءت الآية في قوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾²، فالجمهور على رفع "صم" على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ أي: هم صمّ،³ صُمُّ: التقدير، هم صمّ، هم بكّم، هم عميّ⁴ وهو تشبيهه بليغ، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.⁵

وقد ذكر الزركشي أنّ الغاية من هذا الحذف هي: (صيانة اللسان عنه تحقيراً له)⁶، إذ أنّ في بعض السياقات العربية ذكر الاسم يكون ضرباً من المدح، فحذفه دلّ على حذف ذلك الثناء، فضلاً عن ذلك أن حذف المبتدأ هو لتعجيل مساءلة الكافرين، وزيادة تبكيتهم من جانب، ومن جانب آخر اغتنام فرصة إقبال المخاطبين والسامعين من المؤمنين من أجل تقرير صفات الكافرين

وبيانها لهم؛ ليكونوا أبعد عما يؤدي بهم إليها، فقد جاء هذا الحذف في سياق قرآني عجيب، فقد ورد الحذف ردفاً للمعنى المقصود حين قال سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁷ فلو ذكر المبتدأ "هم" لأُوحي ذلك إلى متلقي الخطاب بداية جملة جديدة، وألقي في نفسه التهيؤ للانتقال إلى مشهد آخر، وبذلك يقع شيء من الانفصام، والانفصال في المعنى المقصود، ولن يكون في الجملة من تأثير في النفس ما يتركه تتابع المعنى وتكثيفها في ذهنه إلا بهذا الحذف بأقصر عبارة وأجزل لفظ..

"صمّ بكم عي": هي في الأصل ثلاث تشبيهات بليغة، وفي اللغة أنها ثلاث جمل، أو جملة متعددة الخبر، وليست نعوتاً لأن النعت ضرب من التعريف، فكلُّ منها خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: "هم صمّ، هم بكم، هم عي"، والتشبيه البليغ في العربية، هو تشبيه حذف فيه الأداة ووجه الشبه، وهو ضربٌ من أضرب التعبير، لم يبق فيه إلا المشبه والمشبه به من جهة البلاغة أي المسند والمُسند إليه من جهة اللغة، لكنَّ الله عزَّت قدرته في هذا التعبير القرآني حذف المسند إليه مع أنه ليس استعارة، لقبول تقدير المحذوف ذاته، وهو الذي يمثل المشبه، والتقدير هم بكم، هم صم، هم عي.⁸

و الحذف في مثل هذا، واجب لإدراك المعنى المقصود الوارد في التركيب لبناء معانٍ لا تتم إلا به، بأقصر أسلوب، وأجزل صيغة، ومنْ أَفْصَحُ من الله قِيلاً؟ لبلوغ المعنى في دفعة واحدة دون انقطاع، لما للجمل من تكاملٍ في المعنى بهذا الحذف، فعَبَّرَ بثلاثة ألفاظ عن ثلاث جمل، بل بثلاث تشبيهات بليغة، وهذا بغرض أخذ المعنى في دفعة واحدة لتكتمل الصورة في ذهن متلقي الخطاب، وهذا الترابط جعل متلقي الخطاب يأخذ المعنى في دفعة واحدة دون انكسار الذي يحدث حتماً لو تمَّ التعبير بثالث جمل مستوفية الأركان، لكلِّ منها استقلاليةٌ بناءً في تركيب الدلالة.⁹

ألم تر أن حذف المسند إليه أدى معاني غير واردةٍ بالثبوت؟ لكون مدلول الجملة انطلق من حيث انتهى تحصيل الفائدة، ثم زاد عليها معاني كانت نتيجة حذف المبتدأ، ثم حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فكان تركيب الصيغة قد تعرض لثلاثة أنواع من الحذف الوارد في التركيب هي:

أ- حذف أداة التشبيه. ب- حذف وجه الشبه. ج- حذف المبتدأ.

ولكلِّ حذفٍ خصائصُ في بناء الخطاب، يقرأ ذلك في علة حذف المحذوف، وما يترتب عليه من معانٍ في التركيب. وما يعرف أنَّ كلَّ حذفٍ يبني دلالة، ولا يحذف إلا بعلة، أدركنا أن هذه الألفاظ الثلاثة: "صمّ بكم عي" هي في الأصل ثلاث جمل مستوفية الأركان لو قُدِّرَ المحذوف، كلٌّ منها يمثِّل تشبيهاً بليغاً، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.

و من صنف هذا الحذف لبناء معنى آخر شبيهه بسابقه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾¹⁰ أي: هو بديع.¹¹

ما من حذف ورد في القرآن إلا ويحمل دلالة، وثبوته يحمل أخرى، إلى درجة أن أي حرف لا يحذف إلا بعلّة ولبناء معنى، سواء أكان ذلك الحرف؛ حرف معنى أو المبني، أو مسند أو مسند إليه أو فضلة.

إنّ ثبوتها دالٌّ على معنًى، وحذفها كذلك يدل على معنًى آخر غير الذي كان مقصودا في الثبوت، ينطلق المعنى من حيث ثبوت المحذوف ليبني دلالة أخرى بواسطة الحذف أشدّ دقة، وأكثر تركيزاً، وأبلغ فصاحة، ولا يتم هذا المعنى بأقصر عبارة، وأبلغ أسلوب إلا بالحذف، لكون العربية تُبَنَّى على الاختصار، فمتى أوصلت المعنى بأقصر عبارة فقد أبنت، هذا ما يقصد بلزوم تصدير المغيّر الدال.^{12 13}

ويظهر أن حذف المبتدأ أي مسند إليه، وهو أحد ركني الجملة في الخطاب القرآني، جاء ليغتنم فرصة إقبال السامع من أجل أن يُقَرَّرَ في نفسه صفات الله تعالى ويرسخ في قلبه لتزيمه سبحانه عن كلّ ما لا يليق به؛ فقد قال عزّ وجلّ قبل هذه الآية: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ فالمقام مقام الردّ على مَنْ زعم أنّ الله - سبحانه - قد اتَّخَذَ وَلَدًا، وقد ردّت الآية ذلك القول الشنيع وفندته، وذكرت أنّه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض، وهذه طريقة من طرائق التفنيد التي تجذب السامع ذهنيًا ونفسيًا، ثم اغتنمت فرصة ذلك الإقبال من أجل زيادة هذا المعنى بإلقاء خبر آخر، دون ابتداء، لتركيز المعنى وتقديره في نفس المخاطب، وكلّ هذه المعاني تُدرك بالحذف، إذ لولاه ما كان ليكون بهذه الطريقة المختصرة المقتضبة الدالة على التركيز، إذ بالحذف من حيث كونه هو ذاته أسلوب من أساليب التعبير، الموصل للمعنى بأقصر أسلوب وأجزل عبارة، علّمنا إياه القرآن.

ولعلّ ممّا هو أظهر، وأشدّ بياناً في التماس المعنى عن طريق الحذف يصبُّ قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾¹⁴ فهو على تقدير مبتدأ محذوف؛ أي هو عالم. فإنه لما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾¹⁵

فقد ألقى للمخاطب جملة متكاملة الأجزاء ذكر فيها انتهاء عالم الغيبيات لله سبحانه، ثم اغتنم فرصة إقبال المخاطب من أجل ترسيخ الإيمان في قلبه بالصفات الأخرى، فأتاه بجملة، وكأنّها تابعة لسابقتها، فهما متلاحمتان لبناء معنى مشترك، له علاقة مباشرة بالمعنى اللاحق لذا جيء

بجملة محذوفة مبتدأ قائلاً: "عالم الغيب" ولو أنه صرح بذكر المبتدأ لجعل المتلقي يظن أنه سينتقل إلى معنى جديد - لكون المعنى يبني وجوباً على المسند والمسند إليه - وبذلك يضعف إقباله نوعاً ما، ولكنه حين أسرع بإلقاء الخبر، اغتنم فرصة الإقبال التام عنده، وكان فيها مخاطب مهيناً، لما وصل إليه بالآية الأولى، فلعل من أجل هذه العلة حُذِفَ معتمد الفائدة، وهو في هذا الجانب، كما يقال: الطَّرُقَ على الحديد الساخن قبل أن يبرد. ومن ذلك الحذف في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹⁶ أي هذه براءة.¹⁷

فالباحث يرى أن من علل حذف المبتدأ في صدر هذه السورة لبناء المعاني منها:

أولها: إنَّ هذه السورة نزلت في حال الغضب الإلهي، وفي هذه الحال يُخْتَصَرُ الكلام، ويحذف منه ما لا يُحْدَفُ في غيره، وذلك يسهم في إشعار المخاطب والمتلقي بمدى الغضب الإلهي الذي حصل آنذاك.

وثانيها: إنَّ في حذف المبتدأ إيجاد بوجوب سرعة البراءة من المشركين دون ابتداء، ودون أي تمهيد، وذلك تقريع وتوبيخ، وهو ضرب من أضرب الوعيد عن طريق الحذف، إذ الحذف أدى معنى لم يؤد بالإطناب والإطالة، وهو أسلوب من أساليب التعبير المقتضب عن طريق الحذف.

وثالثها: إنَّه أراد إلقاء الخبر من أقصر طريق، إلى درجة أن هذه السورة لا تفتتح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم": لأن البراءة لا تتناسب مع ذكر الرحمن الرحيم.¹⁸ ثم إن المتلقي حين يقرع مسامعهُ خبرٌ قويٌّ دون تمهيد أو ابتداء، فإن ذلك يثير في نفسه تساؤلات كثيرة، وتذهب نفسه كلَّ مذهبٍ في تفسيرٍ ما يُراد، وكلُّ هذه المعاني ما كان لها أن تكون إلّا بواسطة الحذف الذي أدى معنى، لم تُؤد بالثبوت.

ولعلَّ أبرز نتيجة لإلقاء ذلك الخبر دون ابتداء، هي أن كثيراً من العلماء سمو تلك السورة بـ "سورة براءة" لارتباطها في الأذهان مع ذكر التَّبَرِّي من المشركين، ليكون ذلك تقريعاً لهم وشفاء للمؤمنين.¹⁹ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²⁰

وعليه فلعلني لا أبعد عن الصواب إن زعمت أنه لما نزلت هذه الآية، وسمعها من سمعها فإنها أثارت تساؤلاً في نفس السامع عن صفة هؤلاء الذين لا يُخْشَى عليهم من شيء، ولا يصيبهم الحزن، فأتاهم الجواب سريعاً بأنهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾²¹

ولنعرف الغاية البلاغية لهذا الحذف لا بدّ أن نعرف السياق الذي قيلت فيه، ولندنو أكثر من علة الحذف لا بدّ أن نتلو الآية التي تسبقها مباشرة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾²²، فلما أتاها الجواب السريع، فأحدث ذلك لذّة في النفس بسبب سرعة معرفة الجواب، دون انتظار، لأنّ المتشوق يتعبه الانتظار، وبقدر ما كان الجواب أسرع، كان أريح للنفس، وخالق النفس أعرف من غيره بها، وكأنّ الآية لم تأت لإثبات الصفة لهم، لأنّ الثناء مرّ عليهم بوصفهم أولياء الله، ولكنّها أرادت تعليم السامع صفتهم، بأشدّ طرائق اختصار، وأبلغها بياناً، والحذف أوفى تعبيراً وأكثر دقة من غيره لبلوغ هذا المعنى، فالحذف إذن بنى معنًى لاحقاً انطلاقاً من معنًى سابق، ما كان ليكون بهذا الاختصار المرادف لمعنى دون تكرار، وليس المعنى ذاته، وبطريقة مختصرة موحية موصلة للمعنى المراد بلوغه، انطلاقاً من المعنى ذاته، ومبني عليه، فلعلّ هذه من موجبات حذف المبتدأ لبلوغ هذا المعنى الدقيق والحاسم.

ولعلّ من ضرب هذا المعنى يقع حذف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾²³

فهاتان الآيتان من جملة آيات تصف حال آل فرعون، فذكرت الآيتان عاقبته وعاقبتهم، ولعلّ السامع حين يسمع قوله تعالى، وحاك بال فرعون سوء العذاب يتساءل ما هو سوء العذاب؟ أهو الغرق في اليم؟ أم غير ذلك؟ فيأتيه الجواب القارع بحذف الابتداء، دون تمهيد، وبكلمة وحيدة كأنها رصاصة صادعة، دون تمهيد أو تأجيل: "النار" فيكون ذلك بمثابة صدمة نفسية قوية مشعرة بتمام قوّة العذاب، وذلك أقوى في ردع النفس وكبحها وتحذيرها، وكل هذا ما كان ليوصل إليه بأقرب أسلوب وأجزل عبارة، ولولم يوظف الحذف، فالحذف إذن أعطى دلالة ما كان لتؤدي بدونه، فهو أذن أسلوب من أساليب التعبير بطريقة مقتضبة موصلة للمعنى بطريقة مختصرة، وبيان العبرة مركز ومركز على الحذف حدّد الصبغة المحذوفة دون تأويل لتبني المعنى بأقصر لفظ موج.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ، خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾²⁴ فخافضة: خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ هي خافضة²⁵ ولو أعربت: صفة أي نعت لتغيير المدلول وليس هذا المقصود بالآية، والإعراب تحت المعنى.

ويرى الباحث أنّ المبتدأ حذف لبناء معاني منها:

- إن الساعة في حالتي الخفض والرفع تفاجئ وتفجع الناس، وهو ضرب من أضرب الوعيد، لأن

الله يريد أن يعيش خلقه بين وعدٍ ووعدٍ، فهناك من الناس من يزجره الوعد فيعود إلى جادته، وطائفة أخرى تُجذبُ إليها بالوعد.

- إنَّ الكلام عن الساعة تشدُّ إليه الأذهان فلا يمكنُ أن ينصرفَ الذهن إلى غيرها، طالما أن الحذف يعطي القارئ التأمل في المعنى ليعرف المدلول، وهذا يستوجب التركيز لمعرفة المقصود، وكلّ ذلك أوصل الحذف.

- إن استعمال كلمتين للدلالة على حالتين متناقضتين تماما، ينقل إلى المتلقي حالة اضطراب سريع حاصل عند قيام الساعة، وكل ذلك ما كان ليؤدى بلفظ واحد، لولا الحذف الذي أعطى المعنى المقصود بكلمة واحدة بل وحيدة، فالحذف تعبير آخر يوصل للمعنى المقصود المراد بلوغه.

ومن معاني حذف المسند، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾²⁶؛ أي هم ثلثة.²⁷

ولمعرفة دلالة الحذف لا بد من تقسي ذلك في أسباب النزول من حيث كونها مادة مسعفة لبلوغ المعنى المراد بلوغه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال لما نزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾²⁸ شَقَّ ذلك على المسلمين، فنزلت الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾²⁹ فلعل المقصود بهذا الحذف تعجيل المسرة للمسلمين، وتطيب خواطرهم، وتهذئ نفوسهم.³⁰

- ومن جهة الإعراب في بناء الجمل، لا يمكن أن تعرب كلمة ثلثة مبتدأ على الرغم من جواز الابتداء بالنكرة، إذ المعنى غير مستوفٍ من التركيب، لذا فهي وجوبا خبر لمبتدأ محذوف، لأن هذا التقدير يستوفي المعنى وتدرك دلالة الصيغة.

- ومما ورد في الشعر من هذا الضرب قول الشاعر الأقيشر في ابن عمِّ له موسر، سأله فمنعه قائلاً له: كيف أعطيك مالي وأنت لا يعينك ؟ فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم، وهو فهم، فشكاه إلى القوم، فوثب إليه ابن عمّه فلطمه، فأنشد يقول:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطُمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدى سَرِيعٌ
حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضَيِّعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضَيِّعٍ

أي: هو سريع، وهو حريص، وقد ذكر القزويني أنه حذف المبتدأ هنا: (لاعتبار مناسب لا يهدي إلى مثله إلى العقل السليم والطبع المستقيم)

ويبدو لي أن التقديم والتأخير يحمل دلالة إضافية، فالحذف أعطى معنى، والتقديم أضاف معنى آخر، فحذف المبتدأ في كلا البيتين جعل لكلٍ منهما جمالية فنية تظهر من خلال تأمل كلمة الصدر، وآخر كلمة من العجز، ففي البيت الأول لو تأملنا كلمتي: "سريع... بسريع." لرأينا أن الشاعر قد رسم صورة حية شبيهة بتشبيه التمثيلي بتوظيفه فقط للكلمتين، وموضعهما في الخطاب، فأتروضعهما تأثيراً بليغاً في المعنى، راسماً مهجوهً بصورة حية حتى كأننا نراه مسرعاً إلى لطم ابن عمه؛ لأن كلمة "سريع" جاءت في أول البيت، وهي بؤرة المعنى المراد بلوغه.

وفي العجز أَرَأَنا صورة أخرى لمنعه، وفراره بسرعة ممن يطلب نداءً حتى جعل لفظ "بسريع" آخر البيت حتى نرى طالب الحاجة منه كأنه يتطلبه، ويسعى إليه، لكن المهجول لا يعيره اهتماماً فَرَّاً منه بسرعة، تاركه وراءه، فكأنَّ المعنى السابق صار ملاحقاً له على شكل ما ينبعث من لفظ "سريع" على شكل صدا.

وبالمقياس اللغوي نفسه، وعلى ضرب تكرار اللفظ، ففي البيت الثاني أيضاً، وعلى المنوال اللغوي عينه، فقد وظَّف الشاعر لفظ "حريص" أول البيت الثاني للإشارة إلى حركة ذلك المهجو، وتمسكه بماله بشدة، جاعلاً كلمة مضيع آخر البيت بعد قوله لما في بيته؛ ليصور لنا بذلك المهجو أمواله خلف ظهره، ومنافحته عنها.

ومن حذف المسند إليه لبناء معانٍ قصراً وحصراً الحذف قول الشاعر جميل بثينة:

وَهَلْ بُثِّنَةُ يَاللَّاسِ قَاضِيَتِي	دِينِي وَفَاعِلٌ خَيْرًا فَأَجَازِيهَا
تَرْنُو بَعِيْنِي مَهَاً أَقْصَدْتُ بِهِمَا	قَلْبِي عَشِيَّةً تَرْمِيْنِي وَأَرْمِيهَا
هَيْفَاءَ مُقْبِلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً	رَبِّا الْعِظَامِ بِلَيْنِ الْعَيْشِ غَازِيهَا

أي: هي هيفاء، ولعل لهذا الحذف فائدتين:

- أولى: المسارعة إلى رسم صورة كاملة للمحبوبة، بأقل عدد من الكلمات، طالما أنها أمامه بمشهدها، فهو لا يحتاج إلى أن يُعرَفَ بها.

- ثانية: إنَّ الشاعر حين قال: "ترنوبعيني مهة" كأنه استحضر صورة المحبوبة، فهي شاحصة أمامه، فهو لا يرى إلا هي، وكلُّ ما هو موجود أمامه لا يعيره اهتمام، فهو لي في مجال رؤيته، مما يعني أنه انتقل إلى حالة الوصف عن طريق المشاهدة العينية الحية. وليس هناك من أحد أمامه إلا هي، إذ ليس هناك غيرها، فلا تُرى الأشياء، وكأنه لرؤيتها عى، أحجبت صورتها

كل ما هو أمامه، وهذا لا يفسر إلا بالحذف الذي أعطى مجالا واسعا.

وفي المجال نفسه يصبُّ قول الشاعر كثير عزة:

هَجَانُ اللَّوْنِ، وَاضِحَةُ الْمُحَيَّا قَطِيعُ الصَّوْتِ أَنْسُ كَسُولُ

أي: هي: هجانٌ. وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين بيان جمالية هذا الحذف، ومراميه بقوله: (حذف المسند إليه "هي" وأبقى المسند "هجان اللون"; لأن لفظ المسند يحمل صفات الحبيبة، فهو يعددها ويظهرها بقصد إبراز صفات حبيبة عزة؛ لأنها تحمل في ذهنه المكانة الأولى، فأراد إبرازها في ذهن المتلقي، ولفت انتباهه إلى هذه الصفات، لتحمل في نفسه المكانة التي احتملتها عند الشاعر، وهذا يفهم من خلال السياق، فهو يسرع بهذه الصفات إلى المتلقي مختصرا الطريق بحذف المسند إليه، وبهذا يبقى تأثير هذه الصفات فينا ولا يزال بسهولة)³¹

وما يترأى للباحث أن هذا الحذف هو أيضا من باب اغتنام فرصة إقبال الشاعر فكريا ليثبت في ذهنه تلك الصفات الجميلة، ليشده بها إلى ما يريد إيصاله للمتلقي. كما يمكن أن يكون علة هذا الحذف إلى شدة شوق الشاعر لمحبوبته حتى إذا ما غابت صورتها عن عينه أسرع باسترجاعها بصورة ذهنية، فهي لا تفارقها عوضاً.

وقريب من هذا المعنى قول المتنبي في سيف الدولة الحمداني:

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبًا فِدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِيًا³²

أَمْضَى السُّيُوفِ: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو أَمْضَى. ويتجلى بكل وضوح أن الشاعر هنا في مقام استرضاء ممدوحه، بدفع غضبه عنه أو على الأقل بتقليل غضبه وسخطه عنه، أو انتشال الغضب ليرضيه مما يمكن أن قاله فيه الوشاة، لذا فهو في حالة الدفاع عن النفس بواسطة القول، فهو لا يعطيه فرصة التفكير فصد السماح له، والعفو عنه، لذا هو يحاول مباغتته بذكر صفاته العظام، وتلك هي سجايا الطبيعية غير محدثة فيه، لذا أسرع الشاعر مباشرة دون أي تمهيد للدخول في موضوع الثناء ليزيل من غضبه شيئاً فشيئاً ليتنحى تدريجياً، وهذا يتطلب التقليل في الكلام مما أجبر الشاعر على حذف المسند إليها لبناء هذه المعاني المباشرة.

ونستطيع القول أيضاً، والموضوع موضع غضب، بأن المقام لا يتسع لكثير من الكلام، فقد يغضب الممدوح لجر كلمة في غير موضعها، فيسرع إلى معاقبة الشاعر، لذلك وجب اغتنام فرصة

الإقبال على ألا يكون إدباراً، فضلاً عن أن الشاعر لا يتكلم عن غائب فهو أمامه حتى يقول "هو".
ولقد كان المتنبي ذكياً يعرف كيف يوظف الكلم، فكلّ حذف عنده يحمل دلالة لا يعبر عنها بالثبوت، فعالج ممدوحه بأعظم صفة، وأجلّ وأحبّ خلة إليه، وهي كونه سيفاً ماضياً، فكأنه يقول لم تكن إساءتي هي الاستهانة بقدر ما هي تقدير ممضٍ سيفه لا يستهان به عوض، فكيف السبيل إلى ذلك؟

ومن لطف هذا الضرب قول بكر بن النطاح:

العينُ تُبْدي الحُبَّ والبُغْضَا وتُظْهِرُ الإِبْرَامَ والنَّقْضَا
دُرَّةُ مَا أَنْصَفْتَنِي فِي الْهَوَى وَلَا رَحِمْتَ الْجَسَدَ الْمُنْضَى
غَضَبِي ؟ وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعُمُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى³³

إنّ حذف المسند إليه في البيت الثالث والتقدير: هي غضبي أعطى معاني لا تلمس بسهولة في إثبات المبتدأ، إذ لو أظهره لكان القصد محمداً، لأن المعنى بُني على المسند والمسند إليه، وهو مقصور بها تحمله صيغة التركيب أي القالب اللغوي الذي قيلت فيه، لكن الحذف أعطى مجالاً أوسع للدلالة.

حذف معتمد الفائدة أي المسند إليه الذي هو محل انطلاق الجملة يؤدي معاني كثيرة يحددها وجوب أو جواز الحذف أو السياق أو الجملة أو الخطاب الذي قيل فيه كما أن محل الفائدة أي المسند يتعرض هو الآخر لبناء معان، فكلّاهما يحذف لبناء دلالات لا تتم بأقصر أسلوب وأجزل لفظ كما في الحذف، وقد وظف ذلك القرآن الكريم ومن أفصح من الله قتيلاً؟ كما وظف ذلك الحديث النبوي الشريف والشعر والنثر.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة المعاني، بغداد 1378هـ-1967م.
- أبو السعود محمد محي الدين بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ)، البحر المحيط، دار الفكر، ط 1.
- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794هـ)، البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391هـ.
- أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (538 - 616 هـ)، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن دار: الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1399هـ - 1979م.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911)، لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم بيروت. ط 3 140هـ.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911)، لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم بيروت. ط 3، 140هـ.
- محمد التنجي، دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد التنجي ط 1، دار الكتاب العربي بيروت 1995م.
- محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلي (ت 471هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي بيروت ط 4 - 1403هـ - 1983م.
- محمد بن عبد المطلب، هكذا تكلم النص، مطبعة دار الكتب العلمية ط 1.
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ط 1 1995
- مصطفى السقا، ديوان المتنبي شرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا وآخرون الطبعة الأخيرة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر 1391هـ 1971م.
- مكي بن أبي طالب القسي، مشكل إعراب القرآن مؤسسة الرسالة - بيروت.
- موفق الدين ابن يعيش النحوي (ت 643هـ)، شرح المفصل، مطبعة عالم الكتب بيروت.
- ميادة عبد القادر عمران العبيدي، البناء الفني في شعر كثير عزة رسالة ماجستير — جامعة بغداد كلية التربية - دار ابن رشد ط 1426هـ 2005م.

الهوامش:

- 1- موفق الدين ابن يعيش النحوي (ت 643 هـ)، شرح المفصل مطبعة عالم الكتب بيروت ج 94/1.
- 2- سورة البقرة الآية 18
- 3- أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (538 - 616 هـ)، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن دار: الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1399هـ - 1979م، ج 24/1.

- 4- محمد علي الصابوني صفوة التفسير دار الجبل للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ط 1 1995، ج 1/33.
- 5- محمد علي الصابوني صفوة التفسير، نفسه، ج 1/34
- 6- محمد علي الصابوني صفوة التفسير، نفسه، ج 1/34
- 6- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794هـ) البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391هـ ج 1/122
- 7- سورة البقرة الآية 17
- 8- صفوة التفسير نفسه ج 1/34
- 9- أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (538 - 616هـ)، إملأ ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن نفسه ج 1/21.
- 10- سورة البقرة الآية 117.
- 11- السعود محمد محيي الدين بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982هـ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو دار إحياء التراث العربي - بيروت ج 1/15.
- 12- أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة المعاني، بغداد 1378 هـ - 1967م ج 1/203.
- 13- محمد بن عبد المطلب هكذا تكلم النص مطبعة دار الكتب العلمية ط 1 ص 227.
- 14- سورة الرعد الآية 9.
- 15- سورة الرعد الآية 8.
- 16- سورة التوبة الآية 1.
- 17- محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبى (ت 471هـ) التسهيل لعلوم التنزيل دار الكتاب العربي بيروت ط 4 - 1403هـ - 1983م ج 2/70
- 18- محمد بن أحمد بن جزى الكلبى أبو القاسم، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، 1995، ج 2/70
- 19- أبي السعود محمد محيي الدين بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم نفسه ج 4/159.
- 20- سورة يونس الآية 62.
- 21- سورة يونس الآية 63.
- 22- سورة يونس الآية 62.
- 23- سورة غافر آية 45.
- 24- سورة الواقعة الآيات 1-3.
- 25- أبو حيان محمـد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ)، البحر المحيط، دار الفكر ط 1، ص 223.
- 26- سورة الواقعة الآيات 39-40.
- 27- مكي بن أبي طالب القسي، مشكل إعراب القرآن مؤسسة الرسالة - بيروت. ص 711

- 28- سورة الواقعة الآيات 13-14.
- 29- سورة الواقعة الآيات 39-40.
- 30- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911)، لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم بيروت. ط 3 140 هـ ص 203
- 31- ميادة عبد القادر عمران العبيدي البناء الفني في شعر كثير عزة رسالة ماجستير - جامعة بغداد كلية التربية - دار ابن رشد ط 1426 هـ 2005 م ص 64
- 32- مصطفى السقا، ديوان المتنبي شرح أبي البقاء العكبري تحقيق وآخرون الطبعة الأخيرة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر 1391 هـ 1971 م ج 1/111.
- 33- محمد التتجي، دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق د. ط 1 دار الكتاب العربي بيروت 1995 م ص: 126.